العبقرية والزعامة السياسية

كتاب (العبقرية والزعامة السياسية) ألفه الأستاذ محمد على الغتيت.

والكتاب كبير يتكون من أربعة وأربعين باباً منها (العبقرية والعبقرى) و(التكوين النفسى للعبقرية والزعامة السياسية) (الزعامة العسكرية) (أثر التربية والتعليم) (التاريخ والسياسة) (العقيدة والسياسة) (العبقرية وعامل السن) (نظرة الأمم للمبادئ) (تشرشل وعامل السن) (نماذج للعبقرية والزعامة السياسية) (عبقريات الغرب) (عمر بن الخطاب) .

وهو منذ الصفحة الأولى يؤكد أن الثورات- والمفروض فيها أنها تعبير عن الخلاص- إن لم تحترم القانون فإنها كالنار تأكل نفسها (إن التشريعات التى وضعتها الثورة الفرنسية مع كثرتها لم يكن لها أى أثر ولم توضع موضع التنفيذ وأصبح الشعب الفرنسى أمام صورة من الاستهتار والفوضى والفساد لم تخطر ببال أولئك الذين مهدوا للثورة ووضعوا لها المبادئ والمثل. ويعجب المرء إذا عرف أن الأسماء التى تذكرها الدعاية الفرنسية كأعلام الثورة أمثال دانتون، وميرابو، ومارا وغيرهم وغيرهم. لم يكونوا سوى أقبح الأمثلة للرشوة واستغلال النفوذ والسلطان ولم تجرؤ واحدة منها على مساءلة الأخرى) .

ويقول: حاول الأمناء من قادة الثورة الفرنسية وقاية مصالح الشعب من فساد وانحراف أصحاب النفوذ والسلطان فقدموا لأول مرة تشريع «من أين لك هذا» الذى وضع لمحاسبة قادة الثورة وقال مقدمه فى الجمعية الوطنية الفرنسية ما يلى:

(فلنعلن للشعب ما إذا كنا قبل الثورة وحالنا الآن؟ وما كانت مهمتنا؟ كم بلغت ثروتنا قبل الثورة وكم بلغت الآن؟ وبأى الوسائل زادت هذه الثروة ليعرف الشعب من الذى زادت أمواله، ومن الذى زادت فضائله؟) .

وفى تاريخنا الإسلامى، قبل الثورة الفرنسية بنحو أحد عشر قرناً كان الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه يحصى أموال الولاة قبل الولاية ليحاسبهم بها على ما زاد بعد الولاية.

ومن عجائب الاستعمار الغربى أنه يصطنع تفسير الحركات القومية التحررية التى يقوم بها المسلمون عرباً وغير عرب بأنها تحركات تعصب إسلامى ضد الاستعمار ومصالحه وكأننا ملزمون بمصالحه وكأن من طبائع الأشياء أن يرحب بلد من البلاد بمستعمريه... حتى تأميم مصدق، البترول الإيرانى، ليس موضوعا اقتصادياً وسياسياً بل مادة للاتهام بالتعصب الإسلامى فى نظر الاستعمار!... ولماذا لا يكون الغرب باستعماره الاستغلالى ذى الوجه الكئيب، تعصباً بالمقياس نفسه ضد الشرق الإسلامى..؟

وفى حديث المؤلف عن الثورات والشعوب يرى أن الشعوب سريعة التأثر من ناحية.. ومن ناحية أخرى دقيقة الحساب وأنها إذا صدمت استشعرت الخيبة واليأس.. وأنها حريصة على تقصى سلوك حكامها.

ويصور المؤلف، الزعيم بأنه (القادر على تحريك الشعور ويكون لأقواله وأفعاله صدى بعيد يشمل حماس الأمم ضد ما يعترض طريق نهوضها من عقبات.. وكان الغرب يقدر خطر مثل هذا الزعيم على تجارته فى أسواق العالم ويدرك تماماً أن جهوده المخلصة ستتجه- حتماً إلى التعليم فتنشره بين الشعب، وإلى الصناعة فتقيمها فى ربوع الشرق وإلى التجارة فتنميها وإلى مختلف الفنون فتنهض بها جميعاً. وهذه الصورة المثلى للزعيم القوى فى الشرق هى مجمل ما قاله ساسة الغرب وكُتّابه فى هذا الصدد. وقد كان أكثرهم صراحة جيراردى رينيفال Gerard de Rayne-vel مساعد فرجين Vergennes وزير خارجية فرنسا فى عهد الملك لويس السادس عشر وذلك فى مذكرة له فى يونيو عام ١٧٨٣م مازالت محفوظة ضمن وثائق وزارة الحربية الفرنسية بباريس.

وتشتد مخاوف الغرب أكثر لو ظهر هذا الزعيم فى مصر بالذات ويقف وراءه رصيد مصر الطويل فى الحضارة والعراقة والأصالة والقدرة.. ويقف وراءه موقع مصر الفريد.. مصر أم الضفتين وأم البحرين وأم الواديين وأم الصحراوين.

لست وحدى التى تقول هذا مصرية، فنابليون فى مذكراته التى كتبها فى منفاه لا تبرح خياله مصر حتى ليقول:

(ما أجمل مصر، لو أتيح لها حكم صالح يحقق لها الاستقرار والرخاء. فإن الخيال ليسبح معى فى مشهد ساحر، إذ أرى أمة عظيمة كأمة سيزوستريس فتنتشر على هذه الأرض وبكفها الأيمن تستند إلى الهند، وبكفها الأيسر تستند إلى أوروبا، ولو كان مصير الشعوب يتحدد

بالوضع الجغرافى فالقاهرة والإسكندرية أفضل من روما وباريس ولندن وامستردام والقسطنطينية وتصبح على رأس العالم بأسره) .

وهكذا كما يقول المؤلف أبرز نابليون الدور الخطير الذى يمكن أن تلعبه مصر فى الشرق بل فى مصير أوروبا بأسرها.. وهو دور غير خاف على من سبقوه منذ الحروب الصليبية فقد انتهى لويس التاسع وهو سجين فى دار ابن لقمان بالمنصورة من وضع الخطوط الرئيسية لسياسة أوروبا إزاء الشرق العربى والإسلامى ومنها استبدال الحملات العسكرية بحملات أخرى تستعمل سلاح الدس والخديعة وبث الخلافات بين الأوساط العربية والإسلامية واستغلال هذه الخلافات والعمل على بقاء نارها متأججة حتى يتم تفتيت الكتلة العربية.. وإثارة الفتن الطائفية. كما أوصى لويس بالعمل على إنشاء قاعدة للغرب فى قلب الشرق العربى تمتد من غزة جنوباً حتى الإسكندرية شمالا وتشمل فلسطين والأردن ولبنان وقبرص.

ومع هذه السياسة لم ينس الاستعمار الغربى أن يعزو إلى الإسلام تخلف المسلمين فى عصر الضعف السياسى مع أن الإسلام أرسى نظام الشورى والمبايعة وحرية الاختيار. وإن ما أصاب المسلمين من الكوارث لا يرجع إلى تعاليم الإسلام وإنما إلى الخروج على هذه التعاليم ومخالفتها.

لقد كان الإسلام إنسانياً حتى فى الحرب. وإنى أطرح مقارنة واحدة عملية:

أوصى أبو بكر رضى الله عنه القائد أسامة بن زيد وقواده بأن يلتزموا فى الحرب هذه القاعدة (لاتخونوا ولا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تعقروا نخلا وتحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا للأكل وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى صوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له).

قارنوا هذا بما جاء فى سفر العدد فى الإصحاح الحادى والثلاثين الذى جاء به:(فتجندوا على مديان كما أمر الرب واقتلوا كل ذكر وملوك مديان اقتلوهم فوق قتلاهم. أوى وراقم وصور وحور ورابع. خمسة ملوك مديان وبلعام من بعور قتلوه بالسيف.

وسبى بنو اسرائيل نساء مدين وأطفالهن ونهبوا جميع بهائم أهلها وجميع مواشيهم وكل أملاكهم) .

لا أعلق. يكفى أن أضع النصين أمام العين والعقل ليستعلن الفرق وينكشف المضمر.

لقد استهدف الاستعمار:

- صلاح الدين.
- الدولة الإسلامية فى الأندلس.
- الدولة العثمانية.
- محمد على فى نافارين.
- مصر فى ١٩٥٦، ١٩٦٧.

ويصف بروكش Prokesh أمراض الحكم الفردى. والحقيقة أن هذه الأمراض لم يصب بها الشرق وحده فالمؤلف يعزو هزيمة ألمانيا فى الحرب العالمية الثانية إلى التحول فى شخصية هتلر (فلو لم يتقمص هتلر شخصية الشعب الألمانى وتجاهل أن الأمة كانت دائماً مصدر السلطات وأنها صاحبة الكلمة العليا فى كل قرار حاسم فى تاريخها. تجاهل هتلر هذه الحقوق فتحول من رمز للأمة وتعبير حى لأمانيها إلى طاغية مستبد.

ويعرف المؤلف العبقرية بأنها ليست وظيفة أو حرفة أو مهنة تحصل بالعلم أو بالعمل بل هى هبة الله يختص بها من يشاء من خلقه.

وقد أطلق رجال الفكر اسم كاريسما Charisma على هذه الهبة التى تميز صاحبها عن سائر الناس وقالوا إن الرب يخص بهذه الهبة الخارقة الشخص المختار من بين عباده.

ويبلغ الإيمان بالهدف عند العباقرة مبلغ العقيدة ولهذا يرى «نيتشه» أن العقيدة هى العمود الفقرى فى حياة العبقرى.

ويجب أن يدرك العبقرى أن نجاحة مرهون بأمرين:

- الوعى بالأسلوب الملائم لعصره.
- الاستناد إلى قوة الأمة هذا مع علم دقيق بمجريات السياسة العالمية ومخططاتها.
- احترام القانون.

يقول «لاسال» فى عام ١٨٦٢ (إن الذى يصنع عظمة الإنسان هو أن يحصر فى شخصه روح أمته التى نبت فيها، وهى التى توليه قيادها ليمثل تطورها، وترى فيه التعبير الحقيقى عنها بكل عزم وتصميم بل تتجلى فيه ذاتها ومصيرها) .

وتحديد الهدف أساسى للنهضة حتى أن البعض يختلفون هدفاً ويصطنعون هدفاً كما اختلق أحبار اليهود (الصهيونية) وغرسوها فى أعماق اليهود فأصبحت موجهاً لهم وغاية يعملون على تحقيقها ويجدر بنا أن نقف وقفة عند تعريف «أرسطو» للعبقرى وواجباته. ويقول أرسطو:

(يجب أن يعنى كل العناية بالجانب الروحى للإنسان وأن يبذل جهوده فى تصحيح الأوضاع التى تجافى الأخلاق وألا يسرف فى الإنفاق بدرجة تثير سخط الأمة التى يثيرها إنفاق أموالها فى غير صالحها المباشر خصوصاً إذا رأت أن هذا الانفاق يوجه للأشخاص غير الجديرين به).

وعن البيئة والعبقرى يقول «سبنسر»:(إن البيئة التى ينتمى الإنسان إليها، هى التعبير عن مراحل التطور البطئ لحالتها الاجتماعية ولهذا لا يتصور القول بأن الرجل العظيم يستطيع إعادة خلق مجتمعه قبل أن يكون مجتمعه قد خلقه هو نفسه وأن جميع التغييرات التى يحدثها الرجل العظيم تستمد أسبابها الرئيسية من الأجيال التى انحدر منها).

والعبقرية السياسية يجب أن تكون حساباتها دقيقة فى الكلام والعمل فإن الدعايات الطنانة يمكن أن تنقاد لها الجماهير ولكنها إذا افتقدت صدقها انقلبت على أصحابها وجعلتهم وقوداً لثورتها التى لا تبقى ولا تذر فتجعل بطل الأمس خائن اليوم، وهى ذاتها الجماهير التى يمكنها أن تتحول من تمجيد الأشخاص إلى سحقهم.

ويرى بعض المؤرخين كما يقول المؤلف أن من الخطأ فى الرأى شحن الجماهير بآمال وأهداف تتجاوز قدرتها وطاقاتها وأن خطر ذلك أشد ونكبته أكثر ألماً للأمة، وأن أى هزة فى مثل هذا الجو تترتب عليها آثار سيئة لا تحمد عواقبها...

ومن العبقرية السياسية، الإحساس بنبض الناس ثم تقبل رأيهم فى غير غضاضة أو استعلاء.

كان بين عمر بن الخطاب وبين رجل كلام فقال له الرجل اتق الله فقال رجل من القوم: أتقول لأمير المؤمنين اتق الله! فقال له عمر: دعه فليقلها لى، نعمَ ما قال، لا خير فيكم إذا لم تقولوها ولا خير فينا إذا لم نقبلها.

وكان بين عمر وأبىّ بن كعب خصومة فقال عمر اجعل بينى وبينك رجلا. فجعلا «زيد بن ثابت» فأتياه فقال عمر أتيناك لتحكم بيننا وفى بيته يؤتى الحكم. فلما دخلا عليه وسع له زيد عن صدر فراشه فقال: ههنا يا أمير المؤمنين. فقال له عمر: هذا أول جورٍ جرت فى حكمك ولكنى

أجلس مع خصمي فجلس بين يديه فادعى أبيّ وأنكر عمر فقال زيد لأبيّ اعف لأمير المؤمنين من اليمين وما كنت لأسالها لأحد غيره فحلف عمر ثم أقسم لا يدرك زيد القضاء حتى يكون عمر ورجل من عَرَضِ الناس عنده سواء!!

وبعد فالكتاب دراسة يجب أن تتدبر ولا أقول تقرأ لأن القراءة سهلة ولكن تدبر المضمون وتعمقه هو الصعب والنادر.

أبرز ما في هذا الكتاب الصورة الحقيقية لأوروبا وللسياسية الأوروبية بعامة والاستعمارية بخاصة. صورة فيها المحركات والدوافع سافرة. الكتاب يقوم على حقائق لا انفعالات مع أو ضد. وكم تنقصنا الحقائق وكم يعوزنا الاتزان وكم نفتقد التقييم الصحيح الأمين والشجاع بلا ضغوط أو زيوف..

تمنيت أن يقرأ هذا الكتاب المحكومون والحاكمون.